كان من الممكن أن يعيش الإنسان في سـهولة كاملـة، لا يتعرض لخطيـة، ولا لتجربة. ولكن في هذا، لا يظهر عمق الإنسان، ولا يعرف معدنه. فسمح الله بالتجارب، تعرض لها كل القديسين، وأخذوا منها خبرات روحية. لذلك سأحدثكم عن:

التجارب والخبرات الروحية[1]

آدم كـان يعيش مع الرب في الجنـة في حيـاة البر، ولكن كـان لابـد لإـرادته أن تُختبر، هل يثبت في البر أم لا. وأُختبر آدم وسـقط. وذاق مرارة الخطيـة، والبعـد عن الله. وكانت هذه هي الخبرة الأولى لنتائج الخطية. ومع ذلك أخذ آدم بركة من هذه التجربة، إذ أن طبيعته بعد الفداء وبعد القيامة، ستكون أفضل، طبيعة نورانية روحانية، تلبس البر ولا تسقط...

ولم نسمع عن آدم ـــــ بعد سقطته ـــــ أنه سقط مرة أخرى.

كل تجربة لها بركاتها وخبراتها. ولولا ذلك ما سمح الله بها. المهم أن يتحسس الإنسان هذه البركات ويغتنمها...

عاش داود النبي في أول حياته عيشـة هادئـة، في الصـلاة والتراتيل والتأمل، بالمزمار والقيثار والعشـرة أوتار... وإلى هنا ولم تكن نقاوة داود قد أُختبرت بعد. وكانت خبراته الروحية محدودة في نطاق معين. ثم أختبر وسقط...

وفي سـقوطه عرف ضعف طبيعته، ودخل في حياة الانسحاق والدموع، وفي حياة المذلة، وشـعر أنه في الموازين إلى فوق. صارت دموعه له طعامًا نهارًا وليلًا. واستفاد تواضعًا ووداعة...

وفي اتضـاع قلبه ارتفعت حياته روحيًا... وظهر تواضعه حينما شـتمه شـمعي بن جيرا، وهو ملك، شـتائم جارحـة. فقال " الرَّبَّ قَالَ لَهُ: سُبَّ دَاوُدَ"... ولم نسمع أن داود كرر تلك الخطية مرة أخرى، لأنه ذاق مذلتها.

كثيرًا ما يرى الله أن أجمل ما يكتسبه الإنسان هو الاتضاع، فيسمح له بالسقوط لكيما يتضع ويعرف ضعفه.

وإذ يعرف الإنسان ضعفه، يدخل في حياة الاحتراس والتدقيق.

يعرف ضـعفه، ويعرف أن الخطيـة "قـد طَرَحَتْ كَثِيرِينَ جَرْحَى، وَكُـلُّ قَتْلاَهَـا أَقْوِيَاءُ"، فيحترس ويـدقق، ويبعـد عن العثرة، وعن كل مصادر الخطية. وبالاتضاع والاحتراس يتنقىّ قلبه.

القـديس تـادرس أخطـأ إذ قَبَـل الرئاسـة أثنـاء مرض معلمه القـديس باخوميوس، فعزله أبوه من كل مسـئولياته... وفي عزله اتضع قلبه، وشـعر أن كـل أمور الـدير تسـير سـيرًا حسـنًا بـدونه... وكمـا قال عنه القـديس باخوميوس "إن تادرس اسـتفاد روحيًا في سـنتي عزله وحبسه، أضعاف ما استفاده كل حياته.

في كـل مـا يحـدث لـك، حـاول أن تسـتفيد روحيًـا، وأن تنمو، وتزداد معرفـة بـالله، وتزداد معرفـة بنفسـك، وتزداد معرفة بالطريق الروحي، وبحروب الشياطين وحيلهم، وطرق مقاومتهم، وتزداد اتضاعًا وانسحاق قلب.

ولنأخـذ بطرس الرسول كمثـال: قبـل الاختبـار كـان يظن في نفسه أنه شـيء "لو أنكرك الجميع، لاـ أنكرك أنا" " ولو أدى الأمر أن أموت معك"... شـعور بالذات، بالقوة، بالأفضـلية على الآخرين. شعور أنه قادر على الانتصار بنفسه، بإرادته، بنقاوته الشخصية... ودخل بطرس التجربة وسقط وأنكر، وعرف ضعفه، وبكى بكاءً مرًا، وغسله البكاء من الشعور بالذات والشعور بالأفضلية...

كثير من التجارب يرسـلها لنا الرب لكي نعرف ضعفنا. إذ قبل التجربـة لا يكون الإنسان فاهمًا لنفسه ولا لقـدراته، ومدى مواجهته للحروب وصموده. فيدخله الرب في النطاق العملي...

بالتجارب، ستعرف أن نقاوتك الحاضرة وعدم سقوطك، إنما سببه النعمة الحافظة لك، وليس قوتك الشخصية.

ليس السـبب قـدرتك على المقاومـة. فلولاـ أن يمين الرب تسـندك، لشابهت الهابطين في الجب. وإن ظننت أنك قـد وصـلت الى درجة معينة، أو أن خطية ما لا تقدر عليك، تكون جاهلًا بنفسك، وجاهلًا بالخطية وبالشيطان.

والله يقول لـك "لاـ تغتر بنفسـك". ثم يرفع يـده عنك، وتضـغط عليك خطيـة بسـيطة فتسـقط، ويقول لك "إن كنت قـد جريت مع المشاة فأتعبوك، كيف إذن تباري الخيل"؟ اتضع، فالتواضع يحفظ نفسك.

كثير من الخطايا لم تقع فيها، لأنك لم تُجَرب بها بعد...

تقول "بـل أنـا قـد جُرِبت ونجحت". أقول لـك "جائز أنك لم تجرب بشـدة وبعنف. أو من الجائز أن تكون قـد جُربت بشـدة، ولكن الله حارب عنك".

كل الذين جربوا، أخذوا خبرة روحية، وفهموا الحياة أكثر من غيرهم. وصاروا أكثر عطفًا على الذين يسقطون.

يعقوب أبو الآباء كان وديعًا وهادئًا وطيبًا، وقد أحبه الله قبل أن يولد. ودخل التجربة، وسقط: خدع أباه وكذب. ثم دخل في خبرة أخرى.

جرب عقوبة الله وجرب معها محبة الله ممزوجة بالعقوبة...

جرب التشريد والخوف والهرب وخداع خاله لابان له، وخداع أولاده له، وجرب الدموع والحزن، وقال "أَيَّامُ غُرْبَتِي عَلَى الأَرْضِ قَلِيلَةً وَرَدِيَّةً. ووسـط هـذه التأديبـات جرب محبـة الله الـذي يظهر له، ويمنحه البركـة والمواعيـد، ويصارعه ويقويه، ويحفظه ويرده إلى تلك الأرض، الله الذي تقولون له في الترتيلة:

يا قويًا ممسكًا بالسوط في كفه والحب يُدمي مدمعك

لم يجرب الله فقـط في حلاـوة حبه، إنمـا أيضـا في حلاوة عقوبته... كيف أن الله يضـرب وهو في عمق الحب. كيف يجرح ويعصب، ويمنع ويمنح...

داود أيضًا اختبر حلاوة الله في الضـيقة. سمح الله لشاول الملك أن يطارده، ويمرمر حياته، ويحاول قتله بكافة الطرق. ولكنه في كل هذه الضـيقات كان يرى وجه الله... كان يقول " يَا رَبُّ لِمَاذَا كَثُرَ الَّذِينَ يَحْزُنُونَنِي؟ كَثِيرُونَ قَامُوا عَلَيَّ. كَثِيرُونَ يَقُولُونَ لِنَفْسِـي: لَيْسَ لَهُ خَلاَصٌ بِإِلهِهِ " وفي نفس الوقت يقول " أَنتَ يَا رَبُّ هُوَ نَاصِرِي، مَجْدِي وَرَافِعُ رَأْسِي. بِصَوْتِي إِلَى الرَّبِّ صَرَخْتُ فَاسْتَجَابَ لِي مِنْ جَبَلِ قُدْسِهِ".

أولاد الله، كلما يدخلون التجارب، يختبرون الله، ويذوقون حلاوته، ويرون يد الله في الأحداث وفي الشدة..

موسـى النبي اختبر يد الله أمام البحر الأحمر. في الوقت الذي يئس فيه الكل والعدو يطاردهم، رأى موسى يد الله. فقال " قِفُوا وَانْظُرُوا خَلاَصَ الرَّبِّ الَّذِي يَصْنَعُهُ لَكُمُ الْيَوْمَ الرَّبُّ يُقَاتِلُ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ تَصْمُتُونَ"... وشق الله في البحر طريقًا..

الذين اختبروا الضيقة فقط، ولم يختبروا المعونة الإلهية، هم قوم لم يفتحوا عيونهم جيدًا لكي يبصروا الله.

مثل جيحزي: رأى قوات الأعداء فقط ولم ير المعونة الإلهية. فصـرخ إليشع من أجله قائلًا " يَا رَبُّ، افْتَحْ عَيْنَيِ الْغُلاَمِ، لِيَرَى أَنْ الَّذِينَ مَعَنَا أَكْثَرُ مِنَ الَّذِينَ عَلَيْنَا "

الضـيقة موجودة، والمعونـة الإلهيـة موجودة، جنود الأعـداء، وجنود الرب، البحر الأـحمر وعصا موسـى، العـدو بكل قوته والرب بكل عنايته وحمايته... يد الله تعمل في هدوء وسط الضيقات.

ما أعجب خبرة " الرَّبُّ يُقَاتِلُ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ تَصْمُتُونَ".

أنـا يـا رب لاـ أملـك قوة للـدفاع. أنـا أضـعف من أن أقاتل أصـغرهم. كَثِيرُونَ يَقُولُونَ لِنَفْسِـي لَيْسَ لَهُ خَلاَصٌ بِإِلهِهِ. ومع ذلك سأقف وأنظر خلاـص الرب... وكيف ذلك؟ " مِنْ أَجْلِ شَـقَاءِ الْمَسَاكِينَ وَتَنَهُّدِ الْبَائِسِـينَ، الآنَ أَقُومُ ـــ يَقُولُ الرَّبُّ ـــ أَصْنَعُ الْخَلاَصَ عَلاَنِيَـةً ". نعم "قم أيها الرب الإله وليتبدد جميع أعدائك، وليهرب من قدام وجهك كل مبغضي اسمك القدوس"...

الذين دخلوا الضيقة اختبروك والذي لا يريد الضيقة، لا يريد أن يختبرك ولا أن يذوق حلاوتك!!

هات يا رب الضيقة. نعم " فِي الْعَالَمِ سَيَكُونُ لَكُمْ ضِيقٌ، وَلكِنْ ثِقُوا: أَنَا قَدْ غَلَبْتُ الْعَالَمَ" وسأغلبه كلما يحاربكم...

مبارك أنت يا رب. سنقف وننتظر خلاصك. وسيغني الملائكة " قَدْ غَلَبَ الأَسَدُ الَّذِي مِنْ سِبْطِ يَهُوذَا" الذي هو أنت.

لولا أن الثلاثـة فتيه ألقوا في أتون النار المحمي، ما كانوا قـد رأوا الرب يتمشـى معهم، ولا يسـمح لقوة النار أن تؤذيهم، كما لم يسـمح للأسود أن تؤذي دانيال.

إنها خبرة، أن تجرب الرب ماشيًا معك وسط النار...

الملك وجنوده يوقدون النار ويزيدونها حطبًا، ولكن إله النار والحطب، إله الملك والجنود، يمشي معك ويضبط طبيعة النار.

كما أن طبيعة النار لم تقو على الثلاثة فتيه، كذلك الطبيعة الوحشية التي للأسود لم تقو على دانيال ... وماذا أيضًا.

خبرة روحية أخرى جربها يوسف الصديق، كيف يسمح الله للشر أن يعمل، ثم يحول الشر إلى خير.

دخل يوسف الصديق في تجربة السـجن، وتجربة العبودية، وتجربة خيانة إخوته له، وتجربة غدر امرأة سيده به... ثم اختبر كيف تدخل يد الله في الأحداث، فيتحول الشر إلى خير.

إيليا النبي، اختبر كيف عاله الله أثناء المجاعة... عاله بغراب يأتي له بطعام يومه، وعاله بأرملة لا تملك سوى حفنة من دقيق، وقليل من الزيت... ليس بالغنى ولا بالقوة ولكن بيد الله العاملة، لئلا يظن أن الذراع البشري هو الذي أنقذه في وقت المجاعة... شبيه بهذا الوضع ما فعله الله مع القديسين الذين اتهموا اتهامات باطلة، ووقف الله إلى جوارهم وأظهر براءتهم. كالقديس أثناسيوس الرسولي، وكالقديس أبا مقار الكبير. دافع الله عنهم، وهم صامتون...

رأينا كيف اجتاز القديسون خبرات الخطية، وخبرات الضيقة، وذاقوا عمل الله معهم. هناك خبرة أخرى، وهي خبرة الطاعة أمام الأمر الصعب التنفيذ...

اجتاز ابراهيم أبو الآباء هذه الخبرة، حينما قال له الرب "خذ ابنك، وحيدك، الذي تحبه، اسحق، وقدمه لي محرقة على الجبل الذي أريك إياه".

أمر صعب، يبدو فوق الطبيعة، يبدو أصعب من دخول النار، ومن النزول إلى جب الأسود... ولكن ابراهيم اجتازه بالطاعة وبالإيمان، وجرب كيف أن الله كان أحن منه على ابنه، وكيف رجع ابنه سالمًا.

لذلك في كل طريقك مع الرب، قل له:

ماهي الخبرة الروحية التي تريدني يا رب أن أنالها من هذا الأمر؟ أنا سأختبر الحياة معك، سأختبر الحلو والمر. سأختبر جبل التجلي، وبستان جثسيماني وجبل الجلجثة. سأختبر جب الأسود، وسجن يوسف، ونار الآتون، وجوف الحوت... ومن كل ذلك سأخرج بخبرة روحية معك.

---

1. مقال لقداسة البابا شنوده الثالث – بمجلة الكرازة – السنة الثامنة – العدد 30 (29-7-1977م)